



مريد البرغوثي



كيف

تفعل «إن» فعل السحر؟

بقلم رشاد عبد القادر · ٢٠ نيسان ٢٠٢٦ · قراءة في ٤ دقائق

حين وصل الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي إلى جسر «اللني» – الجسر الذي يفصل الضفة الغربية عن الأردن، والذي ظل لعقود بوابة العبور الوحيدة للفلسطينيين – بعد ثلاثين عاماً من الغربة، لم يقل ما يقوله الناس في لحظات العودة. لم يصف الشوق، ولم يصف الدموع. قال:

إنني لا أشكرك أيها الجسر القليل الشأن والأمتار. لست بحراً
ولست محيطاً حتى نلتمس في أهوالك أعذاراً. لست سلسلة
جبال تسكنها ضواري البر وغيلان الخرافة حتى نستدعي
الغرائز والوقاية دونك. كنت سأشكرك، أيها الجسر، لو كنت
على كوكب غير هذا، وعلى بقعة لا تصل إليها المرسيدس
القديمة في ثلاثين دقيقة. كنت سأشكرك، لو كنت من
صنع البراكين، ورعبها البرتقالي السميك. لكنك من صنع
نجارين تعساء، يضعون المسامير في زوايا الشفاه،
والسيجارة على الأذن. لا أقول لك شكراً أيها الجسر الصغير.
هل أخل منك؟ أم تخجل مني؟ أيها الغريب كنجوم الشاعر
الساذج، أيها البعيد كخطوة المشلول. أي كَرَج هذا؟ إنني لا
أسامحك، وأنت لا تسامحني.

استخدام «إن» يضيف ثقلًا على الجملة

ثلاث جمل نافية متتالية، ترفض أعذار لم تُقَل

تكرار «كنت سأشكرك» مرتين يصنع إيقاع

النزول من المجرد إلى المحسوس الدقيق

مقطع من «رأيت رام الله» / مريد البرغوثي (1997)

فخذلك: «إنه كان من الأمر ما ترى». «إنّ» تؤكد أنّ ما حدث واقعة لا مرأ فيها وإن بدت مفاجئة. هي تدفع ظنك أنت قبل ظنّ السامع.

وسادسها التهكم «جاء شقيق عارضاً رمحه ... إنّ بني عمك فيهم رماح». الشاعر يُصدّق ساخراً ظن شقيق بأنه لا منازع له. «إنّ» لا تؤكد حقيقة، تؤكد ادعاءً مستحيلاً كي تُظهر سخافته.

سنة أغراض، وكلها تقوم على تجربة واحدة: أسقط «إنّ»، وانظر ما يتبقى. ما يتبقى دائماً أضعف مما كان.

لكن نص البرغوثي يفتح غرضاً سابغاً لم يذكره الجرجاني. الجرجاني تحدث عن «إنّ» مع الإثبات دائماً؛ تؤكد ما هو موجود، أو تدفع ظناً خاطئاً بشيء واقع. لكن في «رأيت رام الله» لمرید البرغوثي «إنّ» تدخل على النفي المطلق: «إنني لا أشكرک»، «إنني لا أسامحك». وهذا يختلف اختلافاً جوهرياً. حين تقول «لا أشكرک» تنفي. لكن حين تقول «إنني لا أشكرک» تُحكم إغلاق الباب. والباب الذي يُغلق ليس في وجه الجسر – الجسر لا يسمع – بل في وجه القارئ الذي قد يظن أن ثلاثين عاماً كافية للمصالحة. «إنّ» تغلق هذا الاحتمال قبل أن يُفتح. وحين تُسقطها من الجملتين يظهر الفرق: «لا أشكرک» و«لا أسامحك» نفيان. لكن «إنني لا أشكرک» و«إنني لا أسامحك» إعلانان أمام شاهد. والشاهد هو القارئ.

وهذا هو قلب ما يصنعه هذا المقطع كله. البرغوثي يخاطب الجسر لكنه لا يتوقع جواباً. الخطاب أداة لا هدف. والقارئ يجلس في المنتصف شاهداً على محاكمة لن تُحسم:

أخيراً! ها أنا أمشي بحقيقتي الصغيرة على الجسر، الذي لا يزيد طوله عن بضعة أمتار من الخشب، وثلاثين عاماً من الغربة.

كيف استطاعت هذه القطعة الخشبية الدكنة أن تُقصي أمة بأكملها عن أحلامها؟ أن تمنع أجيالاً بأكملها من تناول قهوتها في بيوت كانت لها؟

كيف رمتنا إلى كل هذا الصبر وكل ذلك الموت؟ كيف استطاعت أن توزّعنا على المنافي والخيام وأحزاب الوحوشة الخائفة؟

إنني لا أشكرک أيها الجسر القليل الشأن والأمتار. لست بحراً ولست محيطاً حتى نلتمس في أهوالك أعذاراً. لست سلسلة جبال تسكنها ضواري البر وغيلان الخرافة حتى نستدعي الغرائز والوقاية دونك. كنت سأشكرک، أيها الجسر، لو كنت على كوكب غير هذا، وعلى بقعة لا تصل إليها المرسيديس القديمة في ثلاثين دقيقة. كنت سأشكرک، لو كنت من صنع البراكين، وربعها البرتقالي السميك. لكنك من صنع نجارين تعساء، يضعون

«إنني لا أشكرک أيها الجسر القليل الشأن والأمتار».

وفي نهاية المقطع، بعد محاكمة طويلة، يقول:

«إنني لا أسامحك، وأنت لا تسامحني».

شيء ما في هاتين الجملتين يجعلهما تحيثان بثقل غير عادي. ليس المعنى وحده؛ فالمعنى واضح. وليس الصورة؛ فلا صورة هنا. الثقل يأتي من الحرف الصغير الذي يفتح كل جملة: «إنّ».

قبل أكثر من تسعة قرون، انشغل عبد القاهر الجرجاني بسؤال: ما الذي تفعله «إنّ» في الجملة العربية؟ وقد أجاب إجابة من لا يرضى بالسطح. لم يقل فحسب إنها للتوكيد؛ هذا ما يقوله أي نحوي. بل ذهب إلى ما تصنعه فعلاً حين تدخل على الجملة وحين تُحذف منها. يقول:

«هل شيء أُبين في الفائدة من أنك ترى الجملة إذا هي [إنّ] دخلت ترتبط بما قبلها وتأنف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغاً إفراغاً واحداً؟ ثم إذا جئت إلى «إنّ» فأسقطتها، رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول وجفا معناه عن معناه».

هذه ليست قاعدة؛ إنها دهشة. الجرجاني لا يُعرّف «إنّ»، بل يجري عليها تجربة: أسقطها، وانظر ماذا يبقى.

ومن هذه الدهشة يستخرج الجرجاني ستة أغراض لـ«إنّ»، لا يراها النحو التقليدي.

أولها الربط «أنفق في سبيل الله؛ إنّ الله يحب المنفقين». الجملتان كيان واحد، الأولى سبب والثانية تعليل. احذف «إنّ» وستجد الثانية قد انفصلت عن الأولى وجفت عنها كأنها جاءت من نص آخر.

وثانيها تحسين ضمير الشأن «إنّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». «الهاء» في «إنّهُ» ضمير مبهم لا يعود على شيء سبق، و«إنّ» هي التي تمنحه قوته وتهيئ النفس لما يأتي بعده. احذف «إنّهُ» وقل «هو من يتق» بدلاً منها وستحس بالكلام قد خفت وفقد توتره.

وثالثها تهيئة النكرة للإخبار عنها «إنّ رجلاً من أصحابنا فعل ذلك». النكرة لا يُبتدأ بها في العربية عادةً، لكن «إنّ» تمنحها مكانة المبتدأ وتجعلها قابلة للإخبار عنها. احذفها وستجد الجملة قد ترنحت.

ورابعها الإغناء عن الخبر المحذوف «إنّ مالاً وإنّ ولداً». الخبر غائب، لكن الجملة مكتفية بذاتها. احذف «إنّ» وقل «مالٌ وولدٌ» وستجد أنك لم تقل شيئاً.

وخامسها دفع ظنّ خاطئ في ذهن السامع، حين تقول لمن أحسنت إليه

«لكنك من صنع نجارين تعساء، يضعون المسامير في زوايا الشفاه، والسيجارة على الأذن».

النزول من المجرد إلى المحسوس الدقيق «يضعون المسامير في زوايا الشفاه، السجارة على الأذن» هو ما يجعل الجملة أشد تأثيراً. الجسر الذي أقصى أمة بأكملها بناه رجل يضع المسمار في زاوية شفثيه والسيجارة على أذنه. الفجوة بين الأثر والسبب هي مصدر الألم، ولا يحتاج البرغوثي إلى أن يقولها.

ثم يتوقف كل شيء:

«صوت الأخشاب تحت قدمي».

جملة واحدة بلا فعل ولا حكم ولا خطاب. الجسر لا يُجيب بكلام، صرير فحسب. وهذا الصوت الصغير يجري بعد كل تلك المحاكمة الكبيرة كالسكوت الذي يُفحم.

وتأتي النهاية لتقول ما لم يستطع الخطاب كله قوله:

«فيروز تسميه جسر العودة. الأردنيون يسمونه جسر الملك حسين. السلطة الفلسطينية تسميه معبر الكرامة. عامة الناس وسائقو الباصات والتكسي يسمونه جسر اللّني. أمي وقبلها جدي وأبي وامرأة عمي أم طلال يسمونه ببساطة: الجسر».

التدرج من الأسماء الرسمية الكبيرة إلى «الجسر» وحده هو الحكم الأعظم في النص. كل الأسماء الرسمية تحمل أيديولوجيا أو سياسة أو غرضاً. لكن «الجسر» بلا صفة ولا إضافة هو الاسم الحقيقي؛ الاسم الذي تستخدمه الأم والجدّة لأنهما لا تحتاجان إلى وصف ما هو واضح.

وهذا هو ما يفعله البرغوثي طوال النص؛ يُزيل الطبقات حتى يصل إلى الشيء نفسه، بلا أذكار ولا أسماء كبيرة. مجرد جسر صغير، وثلاثون عاماً.

«كيف تفعل «إنّ» فعل السحر؟» — مقارأت · بقلم رشاد عبد القادر ٢٠٠ نيسان ٢٠٢٦
almuharir.net تاريخ السحب ١٦ تشرين الأول ٢٠٢٦

المسامير في زوايا الشفاه، والسيجارة على الأذن. لا أقول لك شكراً أيها الجسر الصغير. هل أخجل منك؟ أم تخجل مني؟ أيها الغريب كنجوم الشاعر الساذج، أيها البعيد كخطوة المشلول. أي خزع هذا؟ إنني لا أسامحك، وأنت لا تسامحي.

صوت الأخشاب تحت قدمي.

فيروز تسميه جسر العودة. الأردنيون يسمونه جسر الملك حسين. السلطة الفلسطينية تسميه معبر الكرامة. عامة الناس وسائقو الباصات والتكسي يسمونه جسر اللّني. أمي وقبلها جدي وأبي وامرأة عمي أم طلال يسمونه ببساطة: الجسر.

وبنية المحاكمة نفسها تعمل بآلية لغوية محددة:

«لست بحراً ولست محيطاً حتى نلتمس في أهوالك أعداراً.
لست سلسلة جبال تسكنها ضواري البر وغيلان الخرافة»

ثلاث جمل نافية متتالية، لكنها ليست وصفاً. هي رفض أذكار لم تُقل. البرغوثي يدفع دفاعاً مُتخيلاً، كأن الجسر كان سيحتج: أنا بحر، أنا جبل. ويُسقط هذه الحجج قبل أن تُرفع. ثم ينقلب الإيقاع:

«كنت سأشكرك، أيها الجسر، لو كنت على كوكب غير هذا. كنت سأشكرك، لو كنت من صنع البراكين».

تكرار «كنت سأشكرك» مرتين يصنع إيقاع المرافعة: أثبت أنك تعرف الشكر، ثم اسجبه. حتى تأتي الضربة الأخيرة: